قصَّة الأيدي المتوضِّئة

قال راوي الخبر : ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة ؛ والمسجدُ يجمعُ النَّاسَ بقلوبهم ، ليُخرِجَ كلَّ إنسانٍ من دنيا ذاتِه ، فلا يفكِّر أحدٌ : أنَّه أسمى من أحد ولقد يكون إلى جانبك الصَّانعُ ، أو الأجيرُ ، أو الفقيرُ ، أو الجاهل ، وأنت الرَّئيسُ ، أو العظيمُ ، أو الغنيُّ ، أو العالم ، فتنظرُ إليه وإلى نفسك فتحسُّ كأنَّ خواطرَك متوضِّئةٌ متطهِّرةٌ ، وترى كلمة الكبرياءِ قد فقدت روحَها ، وكلمةَ التَّواضع قد وجدت روحَها ؛ وتشعرُ بالنَّفس المجتمعةِ قد نصبت الحربَ للنَّفس المنفردة ؛ ولو خطر لك شيءٌ بخلاف ذلك ؛ رأيتَ الفقيرَ إلى جانبك توبيخاً لك ، ونظرتَ إليه ساكتاً ، وهو يتكلَّم في قلبك ، وشعرتَ بالله من فوقِكما ، واستعلَنَتْ لك روحُ المسجدِ كأنَّها تَهُمُّ بطردك منه ، وخُيِّل إليك أنَّ الأرضَ ستلطم وجهك إذا سجدتَ عليها ، وأيقنْتَ من ذاتِ نفسك أن لستَ هناك في دنياك ، وليس صاحبُك في دنياه ، وإنَّما هناك في إنسانيةٍ ميزانُها بيد الله وحده ؛ فلا تدري أيُّكما الذي يَخِفُّ ، وأيُّكما الذي يثقُل[1] .

قال : والعجيبُ أنَّ هذا الذي لا يجهلُه أحدٌ من أهل الدِّين ، يعرفُه بعضُ علماء الدِّين على وجهٍ آخر ، فتراه في المسجد يمشي مختالاً ، قد تحلَّى بحلْيته ، وتكلَّف لزَهْوِه ، فلبس الجبَّةَ تَسَعُ اثنين ، وتَطَاوَلَ كأنَّه المِئذَنة ، وتَصَدَّر كأنَّه القِبْلة ، وانتفخ كأنَّه ممتلىءٌ بالفُروق بينه وبين النَّاس ؛ وهو بعد كلِّ هذا لو كشفَ الله تمويهَهُ ؛ لانكشف عن تاجرِ علمٍ بعضُ شروطِه على الفضيلة أن يأكلَ بها ، فلا يجدُ دنيا ذاتِه إلا في المسجد ، فهو نوعٌ من كَذِبِ العالم الدِّينيِّ على دينه .

* * *

قال الرَّاوي : وصَعِد الخطيبُ المنبرَ ، وفي يده سيفُه الخشبيُّ يتوكَّأ عليه ؛ فما استقرَّ في الذِّروة حتَّى خُيِّل إليَّ : أنَّ الرجلَ قد دخل في سرِّ هذه الخشبة ، فهو يبدو كالمريض ، تُقيمه عصاه ، وكالهَرِمِ ، يُمسكه ما يتوكَّأ عليه ؛ ونظرتُ فإذا هو كذِبٌ

---

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد في مقالات كثيرة . (ع) .

صريح على الإسلام والمسلمين ، كهيئةِ سيفِه الخشبيِّ في كذبِها على السُّيوف ، ومعدِنها وأعمالها .

وتالله ! ما أدري كيف يستحلُّ عالمٌ من علماء الدِّين الإسلاميِّ في هذا العصر ، أن يخطبَ المسلمين خُطبَةَ جُمعتِهم وفي يده هذا السيفُ علامة الذُّلِّ ، والضَّعَةِ ، والتَّراجُع ، والانقلاب ، والإدبارِ ، والهزل ، والسُّخريةِ ، والفضيحةِ ، والإضحاك ؛ ومتى كان الإسلامُ يأمرُ بِنَجْرِ السُّيوف من الخشب ، ونَحْتِها ، وتسويتِها ، وإرهافِ حدِّها الذي لا يقطع شيئاً ، ثُمَّ وضْعِها في أيدي العلماء يَعْتَلُون بها ذُؤابةَ كلِّ منبر ، لتتعلَّقَ بها العيونُ ، وتشهدَ فيها الرَّمزَ والعلامة ، وتستوحِيَ منها المعنويَّةَ الدِّينيةَ ؛ التي يجب أن تتجسَّم ؛ لِتُرى ؟

أفي سيفٍ من الخشب معنويةٌ غيرُ معنى الهزلِ والسَّخافةِ ، وبلاهةِ العقل ، وذلَّة الحياة ، ومسْخِ التاريخِ الفاتحِ المنتصر ، والرَّمزِ لخضوع الكلمة ، وصبيانيَّةِ الإرادة ؟

قال : وكان تمام الهُزْءِ بهذا السَّيف الخشبيِّ ؛ الَّذي صنعته وزارةُ أوقاف المسلمين : أنَّه في طول صَمْصَامة عمرو بن مَعْديكرب الزبيديِّ فارس الجاهلية والإسلام[1] ، فكان إلى صدر الخطيب ، ولولا أنَّه في يده لظهر مَقْبِضُه في صدر الرَّجل كأنَّه وِسامٌ من الخشب . . .

قال : وكان الخطيب إذا تكلَّفَ ، وتصنَّع ، وظهر منه : أنَّه قد حَمِيَ وثار ثائرُه ، ارتجَّ وغَفلَ عن يده ، فتضطربُ فيها قبضةُ السَّيف فتَلكِزُه في صدره كأنَّما تذكِّره : أنَّ في يده خشبةً لا تَصلُح لهذه الحماسة . . . ![2]

* * *

قال : وخطب العالِمُ على النَّاس ، وكان سيفُه الخشبيُّ يخطبُ خطبةً أخرى : فأمَّا الأولى ؛ فهي محفوظةٌ ، معروفةٌ ، ولا تنتهي حتَّى ينتهيَ أثرُها ؛ إذ هي كالقراءة لإقامة الصَّلاة ؛ وكانت في عهدها الأول كالدَّرسِ لإقامة شأنٍ من شؤون

---

(١) كان طول الصَّمصامة سبعة أشبار وافية ، وعرضها شبر . (ع) .

(٢) القاعدة الشرعية : أن البلد الذي يُفتح بالسيف يُخطب فيه بالسَّيف . ولما ضعف المسلمون ؛ أنف السيفُ منهم ، وأطاعهم الخشب ! (ع) .

الاجتماعِ والسِّياسة ، فبينها وبين حقيقتها الإسلاميَّةِ مثلُ ما بين هذا السَّيف من الخشب وبين حقيقتِه الأولى . وأمَّا الخطبة الثانية فقد عقلتُها أنا عن تلك الخشبة ، وكتبتها ، وهذه هي عبارتها :

ويْحكم أيُّها المسلمون ! لو كنتُ بقيَّةً من خشب سفينةِ نوح ؛ الَّتي أنقذ فيها الجنسَ البشريَّ ؛ لما كان لكم أن تضعوني هذا الموضع ؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتموني حيث أنا ، تكاد شرارةٌ تذهب بي ، وبكم معاً ؛ لأنَّ فيَّ ، وفيكم المادَّةَ الخشبيَّةَ ، والمادَّة المتخشِّبة .

ويْحكم ! لو أنَّه كان لخطيبكم شيءٌ من الكلام النَّاريِّ المضطرم ؛ لما بقيت الخشبةُ في يده خشبة . وكيف يمتلئ الرَّجلُ إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعدُ المنبرَ ؛ ليقولَ كلمةَ الدِّين من الحقِّ الغالب ، وكلمةَ الحياةِ من الحقِّ الواجب ؛ وهو كما ترونه قد انتهى من الذُّل إلى أن فقد السَّيفُ روحَه في يده ؟

أيُّها المسلمون ! لن تُفلحوا وهذا خطيبكم المتكلِّمُ فيكم ، إلا إذا أفلحتم ، وأنا سيفكم المدافعُ عنكم . أيُّها المسلمون ! غيِّروه ، وغيِّروني .

* * *

قال راوي الخبر : ولما قُضِيَتِ الصَّلاةُ ماج النَّاسُ ؛ إذ انبعث فيهم جماعةٌ من الشُّبَّان ، يصيحون بهم ، يستوقفونهم ؛ ليخطبوهم ؛ ثُمَّ قام أحدُهم ، فخطب ، فذكر فلسطين ، وما نزل بها ، وتغيُّرَ أحوالِ أهلها ، ونكبتَهم ، وجهادَهم ، واختلالَ أمرِهم ، ثمَّ استنجدَ ، واستعان ، ودعا المُوسِرَ ، والمُخِفَّ إلى البذلِ ، والتَّبرُّع ، وإقراضِ الله تعالى ؛ وتقدَّم أصحابُه بصناديقَ مختومة ، فطافوا بها على النَّاس يجمعونَ فيها القليلَ ، والأقلَّ من دراهمَ هي في هذه الحال دراهمُ أصحابها ، وضمائرُهم .

قال : وكان إلى جانبي رجلٌ قَرَوِيٌّ من هؤلاء الفلاحين ؛ الَّذين تَعرفُ الخيرَ في وجوهه ، والصَّبْرَ في أجسامهم ، والقناعةَ في نفوسهم ، والفضلَ في سجاياهم ؛ إذ امتزجتْ بهم روحُ الطَّبيعة الخِصبةِ ، فتُخرجُ من أرضهم زُروعاً ، ومن أنفسهم زروعاً أخرى ، فقال لرجلٍ كان معه : إنَّ هذا الخطيبَ خطيبَ المسجد قد غشَّنا ، وهؤلاء الشُّبانُ قد فضحوه ؛ فما ينبغي أن تكونَ خطبةُ المسلمين إلا في أخصِّ

أحوال المسلمين .

قال : ونبَّهني هذا الرَّجل السَّاذج إلى معنىً دقيقٍ في حكمة هذه المنابر الإسلاميَّة ، فما يريد الإسلام إلا أن تكون كمحطَّات الإذاعة : يلتقط كلُّ منبرٍ أخبار الجهات الأخرى ، ويذيعها في صيغة الخطاب إلى الرُّوح ، والعقل ، والقلب ، فتكون خطبةُ الجمعة الكلمةَ الأسبوعيَّة في سياسة الأسبوع ، أو مسألة الأسبوع ، وبهذا لا يجيء الكلام على المنابر إلا حيَّاً بحياة الوقت ، فيصبح الخطيب ينتظره النَّاس في كلِّ جمعةٍ انتظار الشَّيء الجديد ، ومن ثَمَّ يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عملٌ .

قال : وخيِّل إليَّ بعد هذا المعنى : أنَّ كلَّ خطيبٍ في هذه المساجد ناقصٌ إلى النِّصف ؛ لأنَّ السِّياسة تُكرهه أن يخلع إسلاميَّته قبل صعوده المنبر ، وألا يصعد إلا في إسلاميَّته الضَّيقة المحدودة بحدود الوعظ ؛ الذي هو مع ذلك نصفُ وعظٍ . . . فالخطبة في الحقيقة نصف خطبةٍ ، أو كأنَّها أثر خطبةٍ معها أثر سيفٍ .

قال : وأخرج القرويُّ كيسه فعزل منه دراهم ، وقال : هذا لِطعامٍ أتبلَّغ به ، ولأوبتي إلى البلد ، ثمَّ أفرغ الباقي في صناديق الجماعة ، واقتديت أنا به ، فلم أخرج من المسجد حتَّى وضعتُ في صناديقهم كلَّ ما معي ، ولقد حسِبت : أنَّه لو بقي درهمٌ واحدٌ ، لمضى يسبُّني ما دام معي إلى أن يخرج عنِّي .

* * *

قال الرَّاوي : ثمَّ دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره ، وأقرأ فيه ما تيسَّر من القرآن ، فإذا هناك رجالٌ من علماء المسلمين ، اثنان ، أو ثلاثةٌ (الشكُّ في ثالثهم لأنَّه حليق اللِّحية) ثمَّ توافى إليهم آخرون ، فتمَّموا سبعةً ، ورأيتهم خلطوا بأنفسهم صاحب (اللا لحية) فعلمت : أنَّه منهم على المذهب الشَّائع في بعض العصريِّين من العلماء ، والقضاة الشَّرعيين ، أحسَبُهم يحتجُّون بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] وكلُّ امرىءٍ فإنَّما تبصِّره مرآته كيف يظهر في أحسن تقويم ، أبلحيةٍ ، أم بلا لحيةٍ . . . ؟

وأدرت عيني في وجوههم ؛ فإذا وقارٌ ، وسمتٌ ، ونورٌ لم أر منها شيئاً في وجه صاحب (اللاَّ لحية) وأنا فما أبصرت قطُّ لحيةَ رجلٍ عالمٍ ، أو عابدٍ ، أو

فيلسوفٍ ، أو شاعرٍ ، أو كاتبٍ ، أو ذي فنٍّ عظيم ، إلا ذكرتُ هذا المعنى الشِّعريَّ البديع الَّذي ورد في بعض الأخبار ، من أنَّ الله تعالى ملائكةً يُقْسِمون : والذي زيَّن بني آدم باللِّحى !

وكان من السَّبعة رجلٌ ترك لحيَتَه عافيةً على طبيعتها ؛ فامتدَّتْ ، وعظُمتْ حتَّى نَشَرَتْ حولها جوّاً روحانياً من الهيبة تَشعرُ النَّفسُ الرَّقيقةُ بتيَّاره على بُعدٍ ، فكان هذا أبلغَ ردٍّ على ذاك .

* * *

قال : وأنصتَ الشُّيوخُ جميعاً إلى خطب الشُّبَّان ، وكانت أصواتُ هؤلاء جافيةً صُلبةً حتَّى كأنَّها صَخَبُ معركةٍ لا فنُّ خَطابَةٍ ، وعلى قدر ضُعفِ المعنى في كلامه قوِيَ الصَّوت ؛ فهم يصرخون ، كما يصرخُ المستغيثُ في صيحاتٍ هاربةٍ بين السَّماء والأرض .

فقال أحد الشُّيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ! جاء في الخَبَر : « تَعِسَ عبدُ الدِّينار ، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم » . ووالله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبَّدوا لهذين حرصاً ، وشُحّاً ؛ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] ولو تعارفتْ أموالُ المسلمين في الحوادث ؛ لما أنكرتْهم الحوادث .

فقال آخر : وفي الحديث : « إن الله يحب إغاثةَ اللَّهفان »[1] ، ولكن ما بالُ هؤلاء الشُّبَّان لا يُوردون في خطبهم أحاديثَ مع أنَّها هي كلماتُ القلوب ؟ فلو أنَّهم شرحوا للعامَّة هذا الحديث : « إن الله يحب إغاثة اللهفان » لأسرع العامَّة إلى ما يحبُّه الله .

قال الثَّالث : ولكن جاءنا الأثر في وصف هذه الأمَّة : « إنَّها في أوَّل الزمان يتعلَّم صغارُها من كبارها ، فإذا كان آخرُ الزَّمان تعلَّم كبارُهم من صغارهم » ، فنحن في آخر الزَّمان ، وقد سُلِّط الصِّغارُ على الكبار يريدون أن ينقُلوهم عن طباعهم إلى صبيانيَّةٍ جديدة .

قال الرَّاوي : فقلت لصديقٍ معي : قل لهذا الشَّيخ : ليس معنى الأثر

(١) انظره في كنز العمال (٧٢٢٧) وضعيف الجامع (١٦٩٨) .

ما فهمت ، بل تأويلُه : أنَّ آخرَ الزَّمان سيكون لهذه الأمَّة زمنَ جهادٍ ، واقتحام ، وعزيمةٍ ، ومغالبةٍ على استقلال الحياة ؛ فلا يصلحُ لوقاية الأمَّة إلا شبابُها المتعلِّم القويُّ الجريء ، كما نرى في أيَّامنا هذه ، فينزلون من الكبار تلك المنزلةَ ؛ إذ تكون الحماسةُ متممةً لقوة العلم . وفي الحديث : « أمتي كالمطر : لا يُدرَى أولُه خيرٌ أم آخرُه »[1] .

* * *

قال الرَّاوي : ولم يكد الصَّديق يحفظ عني هذا الكلام ، ويَهُمُّ بتبليغه ، حتَّى وقعت الصَّيحة في المكان ؛ فجاء أحدُ الخطباء ، ووقف يفعلُ ما يفعله الرَّعد : لا يكرر إلا زمجرةً واحدةً ؛ وكان الشُّيوخ الأجلاء قد سمعوا كلَّ ما قيل ، فأطرقوا يسمعونه مرَّة رابعةً ، أو خامسةً ؛ وفرغ الشَّباب من هَديره ، فتحوَّل إليهم ، وجلس بين أيديهم متأدِّباً ، متخشِّعاً ، ووضع الصُّندوق المختوم .

فقال أحد الشيوخ : لم يَخفَ علينا مكانُك ، وقد بذلتم ما استطعتم ؛ فبارك الله فيك ، وفي أصحابك .

وسكت الشَّاب ، وسكت الشُّيوخ ، وسكت الصُّندوق أيضاً . . .

ثمَّ تحرَّكت النَّفسُ بوحْي الحالة ؛ فمدَّ أولهم يدَه إلى جيبه ، ثمَّ دسَّها فيه ، ثم عَيَّثَ فيه قليلاً[2] ؛ ثمَّ . . . أخرج السَّاعةَ ينظر فيها .

وانتقلت العدوى إلى الباقين ، فأخرج أحدُهم منديله يتمخَّط فيه ، وظهرت في يد الثَّالث سُبحةٌ طويلة ، وأخرج الرَّابعُ سِواكاً فمرَّ به على أسنانه ، وجرَّ الخامسُ كُراسةً كانت في قَبائه[3] ، ومدَّ صاحبُ اللِّحية العريضة أصابعَه إلى لحيته يُخَلِّلُها ؛ أمَّا السَّابعُ صاحبُ (اللالحية) ، فثبتتْ يدُه في جيبه ، ولم تخرج ، كأنَّ فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهره ، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .

وسكت الشَّابُّ ، وسكت الشُّيوخ ، وسكت الصُّندوق أيضاً . . .

---

(١) انظره في كنز العمال (٣٤٤٥١) وضعيف الجامع (١٢٧٧) .

(٢) أي : بحث بأصابعه . (ع) .

(٣) « قبائه » : القباء : ثوب فضفاض سابغ مشقوق المقدَّم ، يضمُّ طرفيه حزام ، ويتخذ من الحرير أو القطن ، وتُلبس فوقه الجبَّة .

قال الراوي : ونظرتُ فإذا وجوهُهم قد لبستْ للشّابِّ هيئةَ المدرِّس الّذي يقرر لتلميذه قاعدةً قرّرها من قبلُ ألفَ مرّةٍ لألف تلميذٍ ؛ فخجل الشّابُّ وحملَ صندوقه ، ومضى . . .

* * *

أقول أنا : فلما انتهى الرّاوي من (قصّة الأيدي المتوضّئة) ، قلت له : لعلك أيُّها الراوي استيقظتَ من الحلُم قبل أن يملأَ الشُّيوخُ الأجلاَّءُ هذا الصُّندوق ، وما ختم عقلُك هذه الرِّوايةَ بهذا الفصل إلا بما كَدَدْتَ فيه ذهنك من فلسفةِ تحوُّل السَّيفِ إلى خشبةٍ ؛ ولو قد امتدَّ بك النَّومُ ؛ لسمعتَ أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهضُ إخوانُنا المجاهدون ، وبمن يصولون ؟ لهذا قال رسول الله ﷺ : « جاهلٌ سخِيٌّ أحبُّ إلى الله من عالمٍ بخيل »[1] . ثُمَّ يَمْلَؤُون الصُّندوق .

* * *

(١) رواه الترمذي (١٩٦١) .